

الفصل الثالث

مصادر التّحاة في تلقى اللهجات العربية

اتفق علماء العربية الأوائل على مَنْ تَوَخَّذَ عنهم لغة العرب، والثابت عندهم: «أن الذين أُخِذَتْ عنهم اللغة وبهم اقْتُدِيَ وعنهم أُخِذَ اللِّسَانُ العربى من بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد فإن هؤلاء الذين أخذ عنهم أَكْثَرُ ما أُخِذَ ومعظمه وعليهم اتَّكَلَ فى الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يُؤْخَذْ عن غيرهم من سائر قبائلهم^(١)، وقد ظل ذلك التحديد الذى اشتراطوه فيمن تؤخذ عنهم اللغة هو المسيطر -غالبا- على نشاط بعضهم في عملية جمع لغة العرب، وبهذه منه حَكَمَ بعضهم بالقبول أو الرفض على ما وصل إليهم من نصوص على حين قَلَّتْ عناية بعضهم به ومالوا إلى ما صحَّ نقله عن العرب وإن خرج عن رقعة الفصاحة.

ولعل ما دفعهم إلى ذلك هو رغبتهم الصادقة فى الوصول إلى مادة لغوية تمثل أكثر مظاهر هذه اللغة وتعبر عنها، ولأمر ما لم يهتم كلا الفريقين -فى الغالب- بعزو ما أخذوه إلى أهلها من القبائل العربية، ولهذا فُقدت قيمة تلك اللهجات وقُلَّ اهتمامُ الجامعين الأوائل بها حيث وجد من الأسباب والدواعى ما وجهَهُمْ هذا التوجيه الخاص ودفعهم إلى عزوفهم عن دراستها أو ملاحقة ظواهرها إلا ما ندر، فالقرآن قد نزل بتلك اللغة المثالية المنتقاة -وقد مضى ذكر ذلك-، والدراسات اللغوية جميعها إنما انطلقت محافظةً على لغة القرآن ومنافحةً عنها حينما خشي عليها بمخالطة العرب لسواهم من أبناء الأمم المفتوحة بعد الإسلام، ومن هنا نجد أن أسباباً عديدة قد أحاطت بطريقة الجمع حالت دون وصول كثير من كلام العرب الذين أُخِذَتْ عنهم اللغة إلى التدوين فضلاً عن الذين تجنب الجامعون لهجاتهم لأسباب منهجية نتيجة تشككهم فى سلامة نطقهم وفصحاحتهم.

(١) السيوطى -الاقتراح- ١٩، المزهري ١: ٢١١ وما بعدها.

والذى نَقَلَ اللغةَ واللسانَ العربيَّ عن هؤلاء العرب وأثبتَّها في كتاب وصيَّرها علما وصناعةً هم أوائل البصريين والكوفيين^(١)، وقد وصل إليهم جميع ذلك من ناحيتين:

أولاهما: أعراب الحاضرة:

الذين كانوا يجاورونهم على مشارف الصحراء أو أولئك الذين استوطنوا هذين البلدين حين بدأوا ينشدون كلام الأعراب.

فقد روي أن مجموعةً من القبائل العربية تقدر بحوالى ١٩٢ قبيلة قد استوطنت البصرة في بدء نشأتها، وحافظت هذه القبائل على عاداتها ولغتها.

وكان الحالُ فيهما امتدادا للحياة العقلية الجاهلية مصبوغةً بالصبغة الإسلامية، فقد كان في القبائل العربية النازلة بالبصرة والكوفة رؤساء وكان هؤلاء الرؤساء أشبهَ شيء برؤساء القبائل في الجاهلية في السيادة على قبائلهم والتفاف الناس حولهم والخضوع لإشارتهم في السلم والحرب ووقوف الشعراء بابابهم يتغنَّون بمدحهم وينشرون مفاخرهم ويهجون أعداءهم ويتغنى هؤلاء السادة بالسيادة والمروءة وبذل المال وما إلى ذلك كالأحنف بن قيس سيد تميم، والحكم بن المنذر ابن الجارود سيد عبد القيس البصرة، ومالك بن مسمَع سيد بكر البصرة، وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة، ومحمد بن عمير بن عطار بن حاجب بن زرارة سيد تميم الكوفة، وحسان بن المنذر من قبة الكوفة، وحجر بن عدي، ومحمد بن الأشعث سيدي كندة الكوفة وغيرهم، وهؤلاء وأمثالهم كانوا مصدرا لحياة أدبية قوية من شعر يشبه الشعر الجاهلي، وحِكَم تشبه التي تُروى عن أكثم بن صيفي^(٢).

واستطاعت سوق المريد أن تحتل مكانة سوق عكاظ في الجاهلية، فقد كان يقدُّ إليها فصحاء الأعراب ببضاعتهم لبيعوا ما عندهم ويشترى حاجاتهم وكان من بين هؤلاء من تكون بضاعته ثروته اللغوية وما يحفظ من أشعار من مَضَوِّ في الغابرين، وقد كان علماء اللغة يشافهون الأعراب ليأخذوا مرادهم من كلامهم.

(١) الاقتراح ١٩.

(٢) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨٦.

لهذا ظلت المريد منتدى يغشاه جامعو اللغة من نحاة ولغويين، ولإحساس هؤلاء الأعراب بأهميتهم وفيما عندهم دفعهم في بعض من الأحيان إلى التزيد وربما الكذب، فوضع الجامعون لكلام العرب من أفواه هؤلاء القوم شروطا واختبروا الناقلين حتى يطمئنوا إلى سلامة لغتهم وفصاحة ما ينقلون^(١).

نقل عن أبي عمرو بن العلاء: أنه سأل أبا خيرة: كيف تقول: سَمَعْتُ لُغَاتَهُمْ؟ فقال: بالفتح، فقال: هِيَهَاتَ يَا أبا خيرة لَأَنَّ جَلْدُكَ^(٢). «ولا تزال كتب الأخبار تحتفظ بأسماء الأعراب الذين دفعتهم الضرورة تحت إهمال العباسيين من أوطانهم اللاهثة المتوجعة ليقدموا معارفهم اللغوية إلى السادة الجدد»^(٣).

قال أبو زيد: كنا يوما عند المفضل وعنده الأعراب، فقلت: «أَيُّهُمْ يقول: شِيرَه «شجرة»؟ فقالوها، فقلت: قلْ لَهُمْ يحقرونها، فقالوا: شِيرَةٌ»^(٤).

والخصومة التي جرت بين سيويه والكسائي إنما كان الحكم فيها للأعراب الذين قال فيهم الكسائي يخطاب يحيي بن خالد البرمكي:

«هذه العرب ببابك وفدوا عليك من كل صقع وقد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون فقال يحيي وجعفر: أنصفت»^(٥).

وهكذا وجد الأعراب أنفسهم موضع اهتمام وعناية من الطبقات العلمية في العراق فوافوهم بما عندهم وقبلوا منهم ما ثبت لديهم صحته.

ثانيتها: أعراب البادية:

والمعروف أن أقدم رحلة علمية إنما كانت على يد يونس بن حبيب الضبي في القرن الثاني، وقد بدأت عملية جمع اللغة بجمع الأمثال والحكم والأشعار على الخصوص باعتبارها ديوان العرب يوم أن ابتعدت الألسن عن عهد الفطرة»^(٦).

وقد ظل الحافظ إلى جمع اللغة والاتصال بالأعراب في مواقعهم إنما هو التعرف على ما لديهم من لغة دَفَعَتْ إليها الحاجة إلى فهم كتاب الله والبحث في أحكام

(١) الدجني - ظاهرة الشذوذ في النحو العربي - ٩٠ وما بعدها.

(٢) الخصائص ٢: ١٣. (٣) يوهان فك - العربية ٥٣.

(٤) القالي - الأماي ٢: ٢١٠ ط ٢. (٥) المغنى ١: ٨٨.

(٦) مجلة اللسانيات ع ١ ص ٤٠.

دينه، وقد قاد كل ذلك إلى دراسة لغة وآداب العرب فيما بعد وليس مهماً بعد هذا البحث عن أي من الدواعي عَجَّلَ بهذا الاتصال أو شجع عليه، فقد زار علماء اللغة البادية وأقاموا بها أياماً وشهوراً غشوا خلالها منازل الأعراب واجتمعوا بهم في مجالسهم وشاركوهم أحاديثهم في السمر وليالي السهر فتوطدت بينهم الصداقة ومكنت بينهم أواصر العلاقة فأفضوا بما عندهم من آداب متنوعة راويين ومدونين. . وإذا كان التحديد الذي ذكره أبو نصر الفارابي قد منع بعضهم من لهجات لقبائل اعتبرت خارجةً عن نطاق الفصاحة لما عَرَضَ لأهلها من الاختلاط بغيرهم والتأثر بهم في أساليب كلامهم، فإن بعضهم قد انطلقوا -كما قلنا- يجمعون لهجات هؤلاء وأولئك فكانوا بين متوسّع في اللهجات ومضيق فيها، وقد رُوِيَ عن بعضهم أنه قال: إن الأصمعي يفتيك في ثلث اللغة وأبو عبيدة يفتيك في نصفها، ذلك لأن الأصمعي كان يضيق ولا يجوز إلا أصح اللغات»^(١).

وينقل صاحب الجمهرة عن أبي عمرو قوله «رأيت باليمن»^(٢).

ويقول ابن جني: وقد حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: سمعت رجلاً من اليمن يقول: فلان لَغُوبٌ جاءته كتابي فاحتقرها»^(٣).

ونقل السيوطي عن الأصمعي عن المعتمر بن سليمان أنه قال: «بل هو مباح بلغة حمير»^(٤)، وكثيراً ما يقولون: سمعنا أعرابياً، وقال أعرابي، قال الأصمعي: وقف أعرابي على قوم من الحجاج فقل: يا قوم: بدء شأنى والذى أُلْجَأْنِي إِلَى مَسْأَلَتِكُمْ أَنْ الْغَيْثَ كَانَ قَدْ قَوِيَ عِنَّا ثُمَّ تَكَرَّفَ السَّحَابُ وَشَصَا الرِّبَابُ وَأَدْلَهُمْ سَيْقُهُ»^(٥)...

وقال القالي: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة عن يونس قال: وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال: قَلَّ النِّيلُ وَنَقَّصَ الكَيْلُ»^(٦). . وقال أيضاً: «حدثنا أبو بكر بن دريد قال: أخبرنا عبدالرحمن عن

(١) المزهر ٢: ٤٠٤.

(٢) جمهرة اللغة ٢: ١٤٧.

(٣) الخصائص ١: ٢٤٩.

(٤) المزهر ١: ٤١٥.

(٥) نفسه ٢: ٥٢٢.

(٦) نفسه ٢: ٥١١.

عمه عن أبي عمر بن العلاء، قال: رأيت باليمن غلاماً من جرم يشد عنزاً^(١). . .».

وقال السيوطي: قال أبو عبيدة في العروة مثله أو نحوه إلا أنه قال هذا البيت: شجرة العرى وعراًعر الأقوام

لشرحيل رجل من بنى تغلب^(٢)، وحدثنا أبو بكر قال: حدثنا السكن بن سعيد قال: قيل لرجل من حمير: ما الداء العضال؟

قال: هوى محرض وحسد ممرض وقلب طروب ولسان كذوب وسؤال كديد ومنع جحيد، ورشد مطرح، وغنى ممتخ^(٣).

وقال أبو بكر: الزخبيخ بلغة أهل اليمن: النار^(٤).

وحدثنا أبو بكر قال: حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي قال: قيل لرجل من حمير: ما الغر فيكم؟ قال: حوط الحريم وبذل الجسيم ورعاية الحق وقول الصدق، وترك التحلي بالباطل والصبر على المشاكل، واجتناب الحسد، وتعجيل الصفد^(٥).

ومعظم من ذكرناهم من هؤلاء العلماء هم من السابقين الأولين في تأسيس صرح علم النحو، وإذا كان كتاب سيبويه -الذي يمثل أول تقعيد للعربية وصل إلينا- قد اعتمد في بناء قواعده على الاستعمال اللغوي العام عند معظم العرب دون استثناء، إلا أننا نجد أحياناً يلجأ -عند اختلاط اللهجات وتباينها- إلى ترجيح كفة اللسان الحجازي^(٦).

والمأمل في كتاب سيبويه يرى أن الرجل وإن آمن بمذهب أصحاب تنقية اللغة وحكمه فيما أقدم عليه في شئون الاستعمال اللغوي العام، إلا أن هناك ما يؤكد خروج سيبويه -ولو طفيفاً- على ما قرره أبو نصر الفارابي وغيره من علماء العربية من تحديد لدائرة الأخذ والقبول، صحيح أن سيبويه لم يستشهد بشعر لمحدث البتة

(٢) المزهر ٢: ٣٣١.

(٤) نفسه ١: ١٧١.

(٦) الكتاب ٢: ٤٢٤ - ط بولاق.

(١) نفسه ٢: ٥٤٨.

(٣) القالي - الأمايلي ١: ١٧٦.

(٥) المزهر ١: ١٦٤.

إلا أننا نؤكد احتجاجه بشعر لأقوام لا ينتمون إلى رقعة الفصاحة التي حددها علماء اللغة كعدى بن زيد، وأبي دؤاد^(١)، وهما ممن لم يرو بعض علماء العربية أشعارهما بشهادة الأصمعي لانحراف لهجتهما عن لغة نجد^(٢)، كما اعتمد على شعر لأمية بن أبي الصلت^(٣)، وغيره من بني حنيفة.

وأهل العربية قد نحوا هاتين البيئتين عن دائرة الأخذ^(٤)، كما نجد في الكتاب أشعارا نُسبت للكُميت، والطرماح، والفرزدق وذى الرمة^(٥).

وقد قيل: أن أبا عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحق وعيسى بن عمر والحسن البصري وعبدالله بن شبرمة كانوا يلحنون الفرزدق والكُميت وذو الرمة وأضرابهم ويعدونهم من المولدين الذين لا يستشهد بكلامهم^(٦)، كما أورد سيبويه شعرا لقوم لم تكن العربية سليقة لهم كزياد الأعجم وأبي عطاء السندي^(٧).

وأورد أشعارا لمجهولين وكل ذلك غير مقبول للاحتجاج به في قواعد العربية^(٨). ويبلغ الأمر مداه عند سيبويه عندما يترك ذلك ليقول: وليس في كلامهم، إنهم يقولون، وقد حملهم، وإنما كلامهم، ولكنهم تركوا، وسمعنا من يوثق به من العرب، وسمعنا من العرب من يقول، ومن ذلك قول العرب، وهذا قول العرب، وهذه حجج سمعت من العرب، كان ذلك عربيا جيدا، فهذا عربي كثير، وأعلم أن ناسا من العرب، ومن يوثق به من يزعم أنه سمعها من العرب..

وقد يعتمد أيضا جانب الفصاحة ويميل إلى لغة الفصحاء من الأعراب فقد كانوا الحكم في مسائل اللغة، والمرجع عند النقاش واحتدام الخلاف.

فإذا تأملنا في موقف معاصر لسيبويه ومن أخذ عمن أخذ عنه سيبويه سوى الخليل وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش «ت - ٢٢١هـ» «فقد كان يستشهد بقول لبنى قشير وهم من سكان اليمامة وأهل العربية لا يأخذون عن بني

(١) الكتاب ١: ٧٠، ٣٣. (٢) الخزنة ٤: ١٩١.

(٤) الكتاب ١: ١٦٣. (٤) الاقتراح ١٩.

(٥) الكتاب ١: ٥٩، ٢١٢، و ١٠، ٢٥٠ على الترتيب.

(٦) الخزنة ١: ٣. (٧) الكتاب ١: ٢٥٢، ٢٦٦.

(٨) الخزنة ١: ٣ وما بعدها.

حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، وكذا ذكر أقوالا لبكر بن وائل مع أن ديار بكر بن وائل كانت تمتد من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت وهي ديار لا يُطمأن إلى لغات ساكنيها وكذا يذكر لغات لأهل اليمن وأهل العربية لا يأخذون من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشية فيهم.

ومهما يكن فإن تعمّد الأخفش لإيراد هذه القبائل وذكر لهجاتها كاف وحده للدلالة على عدم اقتناعه بدعوى تحريم الأخذ منها^(١).

وسار متأخرو البصريين ممن أتوا بعد سيبويه على ما سار هو عليه واستنوا سنته يتوسعون وقد يضيّقون.

أما الكوفيون: فقد اتخذوا من الأعراب سواء أكانوا يجاورونهم في مواطنهم أم كانوا لا يزالون ضارين خيامهم في أعماق الصحراء مصدرا مهمّا لجأوا إليه بغية الوقوف على لغة العرب^(٢).

ويذكرنا سؤال الكسائي للخليل بن أحمد لما وفد عليه واستمع إليه في مجلسه فأعجب بما لديه فقال له: «من أين لك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج إليها وأنفذ فيها خمس عشرة قينة من الخبر سوى ما حفظه»^(٣) على مبلغ عناية الكوفيين وعلى رأسهم زعيمهم الكسائي بتتبع لهجات الأعراب والاتصال بهم في منازلهم ومحالّ إقامتهم، وهم بعد هذا وثقوا بمن ساكنوهم في الكوفة أو حلّوا قريبا من ديارهم من أنصاف القبائل العربية، ووجدوا في لهجاتهم فصاحة وبعدا عن الاختلال والعيّ فمالوا إلى الأخذ بها «فقد أخذ الكسائي بلهجات أعراب الأرياف كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطمة»^(٤).

(١) منهج الأخفش في الدراسات النحوية ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) مهدي المخزومي - مدرسة الكوفة ٣٧٧.

(٣) نزهة الألباء ٨٢ وما بعدها.

(٤) مدرسة الكوفة ٣٧٧.

كما افترضوا سلامة اللغة في كثير من أبى البصريون الاحتجاج بكلامهم فهذا الكسائي -أيضا- يثق في اللغة بأبي زياد الكلابي وأعراب آخرين كانوا قد نزلوا بغداد أيضا كأبي فقعس، وأبي الجراح، وأبي ثروان^(١).
كما وجدناهم قد أخذوا عن بنى العنبر من تميم^(٢).

والمؤكد أن هؤلاء النحاة قد استقوا مادتهم اللهجية مما وصل إليهم من نصوص فقد جاءهم عن العرب شواهدٌ تمثل تراثا شعريا ضخما وأمثالا وفيرة العدد، وقرئات متواترة حرص ناقلوها على الحفاظ عليها وتشددوا تشددا كان مضرب الأمثال^(٣).

وأحاديث شريفة صحَّ سندُها ونُقِلَتْ بألفاظها، وهي تحوى -مع كل ذلك- كمية هائلة من اللهجات العربية.

ففي مجال الشعر:

نجد من النحاة من يعتمد عليه اعتمادا شديدا في تصوير مظاهر اختلاف لهجات العرب، ولعل ذلك قد أتاها من قبل أن الشعر من أكثر المصادر التي يميل إليها العربي بفطرته، وهو أسهل حفظا لما يتمتع به من وزن وقافية، ومن ناحية أخرى كان أكثر تداولاً بين ألسنة قبائل العرب، وكل يرويهِ حسب لهجته وعاداته الكلامية في النطق والأداء، ولهذا كثُرَتْ فيه الرواياتُ واختلفت فيما بينها اختلافاً ملحوظاً، فالنحاة يستشهدون بقول جرير:

أَلَا أَضَحَّتْ حِبَالُكُمْ رِمَامَا وَأَضَحَّتْ مِنْكَ شَاسِعَةٌ أُمَامَا

على إجراء الاسم المؤنث في غير النداء لما اضطر كما أجراه في النداء لكن ينقل عن أبي زيد أنه قال:

أنشدنا هذا البيت أبو العباس محمد بن يزيد^(*) عن عمارة:

(١) المزهر ٢: ٤١٠. (٢) الميداني -مجمع الأمثال ١: ١٢٣.

(٣) عبدالأمير محمد -منهج الأخفش الأوسط في الدراسات النحوية ١٨٧.

(*) لا ندرى كيف أخذ أبو زيد الأنصاري الذي توفي سنة ٢١٦ هـ على أبعد تقدير عن المبرد الذي ولد سنة ٢١٠ هـ إذا علمنا أن المبرد كان في هذه الفترة في سن مبكرة نزع منها سن الطلب -لا شك أن في النص اضطرابا لم ينبه عليه محقق النواذر.

وَمَا عَهْدٌ كَعَهْدِكَ يَا أُمَامَا^(١)

وينقل النحاة قول الشاعر:

فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى، وارْفَعْ الصَّوْتَ جَهْرَةً لَعَلَّ أَبِي الْمَغَوَارِ مِنْكَ قَرِيبٌ

ولكن ينقل عن أبي زيد أنه قال: قال كعب بن مالك بن سعد بن مالك الغنوي:

وَدَاعٍ دَعَا هَلْ مِنْ مُجِيبٍ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى وارْفَعْ الصَّوْتَ جَهْرَةً لَعَلَّ أَبَا الْمَغَوَارِ مِنْكَ قَرِيبٌ^(٢)

وهي الرواية التي أوردها النحاة - كما سبق - فالبيت إذا روى بروايتين:

إحدهما: موافقة للغة الفصحى.

والثانية: تثبت لهجة عقيل أو هذيل وهم من نسب إليهم الخفض بها في الاسم

الواقع بعدها.

ولعل اختلاف الروايات فيما وصل إلينا من كلام العرب إنما يرجع - في أكثره -

إلى الاتساع في المعنى؛ إذ هو مفاد مما عبر عنه من الألفاظ جميعا فسامحوا أنفسهم في العبارة عنه إذ المعنى عندهم هو المقصود^(٣).

وقد أشار بعض قدماء الباحثين إلى ذلك فقالوا: «إن الرواة قد تغير البيت على

لغتها وترويه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعر ويخالفها حيث كان ينشد بعضهم

شعر بعض وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها، ولذلك كثرت

الروايات في البيت الواحد، ألا ترى أن سيبويه قد يستشهد ببيت واحد لوجوه

شتى؛ وإنما ذلك على حسب ما غيرته الرواة بلغاتها، وكلها يصح الاستشهاد به

على الجواز من غير الضرورة لأن لغة الراوي من العرب شاهد كما أن قول الشاعر

شاهد إذا كانا فصيحين^(٤).

(١) أبو زيد الأنصاري - النوادر في اللغة ٣١.

(٢) النوادر في اللغة ٣٧. (٣) الخصائص ٢: ٤٦٦.

(٤) الخزانة: ٢: ١٣١.

ويبدو أن من ذهب ذلك المذهب كان على حق -كما هو ظاهر ما قدمنا- إذ من الثابت أن لكل قبيلة لهجتها (مذهبها الخاص بها في الكلام)، ولا بد أن يظهر اختلاف لهجاتها وتباين خصائصها في شعر أبنائها والمتحدثين بلسانها فيما ينشدونه من قول ويروونه عن سواهم من أبناء القبائل الأخرى، ومن هنا فقد حمل ذلك المصدر «الشعر» -الذي قد كان من أمر اعتناء النحاة به ما قدمنا- صورا مختلفة من مظاهر اختلاف اللهجات العربية في النواحي الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. -وقد أشرنا إلى بعض ذلك- ومن ثم رأينا:

التلثة: نحو ما أنشده سيويه عن حكيم بن معية الربعي:

لَوْ قُلْتَ مَا فِي قَوْمِهَا -لَمْ تَيْثَمْ يَفْضُلُهَا فِي حَسَبٍ وَمَيْسَمٍ^(١)
والكشكشة كقول مجنون ليلي^(٢):

فَعَيْنَا شَ عَيْنَاهَا وَجِدْ شَ جِيدُهَا وَإِنْ كَانَ عَظْمُ السَّاقِ مِنْشَ دَقِيقُ
والعننة: كقول ذى الرمة^(٣):

أَعَنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرَقَاءَ مَنْزِلَةَ مَاءِ الصُّبَابَةِ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومِ
الطمطمانية^(٤): كقول القائل:

ذَاكَ خَلِيلِي وَذُو يُوَاصِلُنِي يَرْمِي وَرَائِي بِأَمْسِهِمْ وَأَمْسِلَمَهُ
والوكم^(٥) كقول الحطيئة:

وَأَنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا
والعجعة كقول بعض أهل اليمن:

يَارَبِّ إِنْ كُنْتَ قَبِلْتَ حِجَّتِي فَلَا يَزَالُ شَاجِحٌ يَأْتِيكَ بَجٍ^(٦)

(١) الكتاب ٢: ٣٤٥، شرح المفصل ٣: ٥٩، الخزانة ١: ٣١١.

(٢) شرح المفصل ٨: ١٥٠، جمهرة اللغة ١: ٢٣٨.

(٣) الصاحبى ٣٥.

(٤) المغنى ١: ٤٨.

(٥) الكتاب ٢: ٢٩٤.

(٦) النوادر: ١٦٤، سر الصناعة ١: ١٩٣.

والوتم: كالذى نسب إلى علباء بن أرقم:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ بَنِي السَّعْلَاتِ عَمَرَوْ بَنَ يَرْبُوعٍ شِرَارَ النَّاتِ (١)

وورد فيه: إبدال الثاء تاء كالذى نسب إلى بنى قريظة فى قول السموأل اليهودى:

وَأَتْنِي الْأَنْبَاءُ أَنِّي إِذَا مَا مْتُ أَوْ رُمَّ أَعْظَمِي مَبْعُوتٌ (٢)

وإبدال بنى تميم ومن تابعهم الجيم ياء كقول أم الهيثم:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فَيَكُنْ ظِلٌّ وَلَا جَنَى فَأَبْعَدَكَنَّ اللَّهُ مِنْ شِيرَاتِ (٣)

وإبدال قيس ومن تابعهم للصاد زايا فى قول الشاعر:

يَزِيدُ - زَادَ اللَّهُ فِي خَيْرَاتِهِ - حَامِي نَزَارٍ عِنْدَ مَزْدٍ وَقَاتِهِ (٤)

وإبدال بعض أهل اليمن للصاد تاء فى قول عبد الأسود بن عامر الطائي:

فَتَرَكْنُ نَهْلًا عِيْلًا أَبْنَاوَهَا وَبَنِي كِنَانَةَ كَا لِلصُّوتِ الْمُرْدِ (٥)

وإبدال هذيل للواو المكسورة المتطرفة همزة كقول ابن أبى مقبل:

إِلَّا الْإِفَادَةَ فَاسْتَوَلْتُ رَكَائِبَنَا عِنْدَ الْجَبَابِيرِ بِالْبَاسَاءِ وَالنَّعَمِ (٦)

ونظائر ذلك فى الشعر كثيرة تجل عن الحصر، وسيأتى الحديث عن ذلك فى

موضعه من القسم الثانى فى هذا البحث.

كما رأينا فيه صوراً من إلزام المثنى الألف فى الأحوال كلها كقول هوبر

الحارثى:

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ ضَرْبَةً دَعَتْهُ إِلَى هَابِي التُّرَابِ عَقِيمِ (٧)

وكقول الآخر:

يَا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَّاهَا بِثَمَنِ نُرْضِي بِهِ أَبَاهَا (٨)

(١) النوادر ١٠٤، سر الصناعة ١: ١٧٢.

(٢) الأصمعيات ٢: ٧٥ - دار المعارف.

(٣) اللسان - مادة شجر -.

(٤) سر الصناعة ١: ٢٠٨.

(٥) نفسه ١: ١٧٣، شرح المفصل ١٠: ٤١.

(٦) الكتاب ٢: ٣٥٥.

(٧) النوادر ٥٨.

(٨) شواهد العيني المطبوع على هامش الخزانة ١: ١٣٣.

وفتح بعض العرب نون المثني كقوله:

أَعْرِفُ مِنْهَا الْجَيْدَ وَالْعَيْنَانَا (١) وَمَنْخَرَيْنِ أَشْبَهَا ظُبْيَانَا (٢)

وضمها بعض العرب كقول الشاعر:

يَا أَبَتَا أَرْقَنِي الْقِذَّانُ فَالنَّوْمُ لَا تَأْلُفُهُ الْعَيْنَانُ (٣)

وإعراب جمع المذكر السالم بالحركات الظاهرة على النون لاسيما في الملحق به كقول سحيم:

وَمَاذَا تَدْرِي الشُّعْرَاءُ مِنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ حَدَّ الْأَرْبَعِينَ (٤)

وإعمال أدوات عند بعض العرب وإهمالها عند آخرين كقول المجنون:

إِذَا مَا غَدُونَا قَالَ وَلِدَانُ أَهْلِنَا تَعَالُوا إِلَى أَنْ يَأْتِنَا الصَّيْدُ نَحْطُبُ (٥)

وكقول بعضهم:

أَنْ تَهْبُطِينَ بِلَادَ قَوْمٍ يَرْتَعُونَ مِنَ الطَّلَاحِ (٦)

وصرف بعض الأسماء، ومنع صرفها عند آخرين، كما عرف عن بعض الحجازيين من بناء نحو حذام على الصرف من قول القائل:

إِذَا قَالَتْ حَذَامُ فَصَدَّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ (٧)

وقلب بعض أصوات الكلمة وإعلاؤها عند بعض العرب كما تفعل طيء في نحو «بقي» من نحو ما نسب إلى زيد الخيل:

فَرُدُّوا عَلَيْنَا مَا بَقَا مِنْ نِسَائِنَا وَأَبْنَائِنَا وَأَسْتَمْتِعُوا بِالْأَبَاعِرِ (٨)

وسيأتي الحديث عن كل ذلك في موضعه من القسم الثاني من الكتاب..

(١) الخزانة ٣: ٣٣٦.

(٢) حاشية الصبان ١: ٩١، الهمع ١: ٤٩.

(٣) الخزانة ٣: ٤١٤، الهمع ١: ٤٩.

(٤) الخصائص ١: ٣٨٩.

(٥) المغنى ١: ٣٠.

(٦) شرح التصريح ٢: ٢٢٥.

(٧) شرح أبيات سيويه للسيرافي ٢: ٢٤٨ وما بعدها.

ومن كل ما سبق نرى أن الشواهد الشعرية التي زُحِرَتْ بها كتب النحو قد حملت في معظمها مظاهر شتى من صفات اللهجات العربية التي كانت تعج بها ألسنة قبائل العرب القاطنة في شبه الجزيرة العربية في النواحي الصوتية والصرفية والنحوية. . وكل ذلك كان مصدراً مهماً أوقف الباحثين في شئون لهجات العرب على حقيقة بعض تلك المظاهر وأنواعها، وظلَّت تُوجِّهُ مسار الدرس النحوي صعوداً وهبوطاً سلباً وإيجاباً إذ تبعث الدارسين على وضع مسائل أخرى أو معارضة الوارد عن طريقها أو تخريجه على صور الشذوذ والندرة أو القبح والقلة - وسنرى ذلك فيما بعد- فهذا أبو العباس المبرد يطعن على سيبويه روايته لهذين البيتين:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِنْمَّا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ
وقوله:

رُحْتُ وَفِي رِجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا وَقَدْ بَدَأَ هُنَاكَ مِنَ الْمِزَرِ^(١)
ويخرجها على ما يتفق والقاعدة النحوية^(٢).

ولكن المعروف أن ذلك لهجة حكيت عن تميم، فلا يلتفت إلى قول أبي العباس في مثل هذا، وستحدث عن ذلك فيما بعد. . .

أما الأمثال:

ففوق أنها تُمَثِّلُ لغةَ عصرها ومستواه العقلي، فإنها خير ممثل للغة قائلها؛ لأن الأمثال لغة الشعب التي يطلقها قدر الحديث دون تصنع، فلطالما ظل الشعر ممثلاً لطبقة من الناس يُعَدُّون في مستوى أرقى من مستوى العامة، فَيُعَبَّرُونَ بِالْفَافِ مصقولة صقلاً يستوجب الشعر، وهذا بخلاف الأمثال التي كثيراً ما تنبع من أفراد الشعب نفسه، وتعبر عن عقلية العامة، ولذلك تجد كثيراً منها غير مصقول ولم يَتَخَيَّرْ لها ألفاظ الأدباء ولا العقلاء الراقين، ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من الأمثال العربية يفهم معناها إجمالاً لا تفصيلاً. . . وقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقياً مصقولاً وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك^(٣).

(١) الخصائص ١ : ٧٤ وما بعدها.

(٢) الهمع ١ : ٥٤.

(٣) فجر الإسلام ٦٠ وما بعدها. . بتصرف.

ولهذا فإن دراسة الأمثال تفيد مادةَ الدرس اللهجي خير فائدة، وتصور لغة أصحابها وطرائقهم في استعمالات اللغة وأدائها.

قال الميداني: أَتَى عَلَيْهِمْ ذُو أَتَى^(١)... هذا مثل من كلام طيء^(٢)، و«ذو» في لغتهم تكون بمعنى الذي - كما يقوله النحاة، ويقولون: «نَحْنُ ذُو فَعَلْنَا كَذَا» أي نحن الذين فعلنا كذا، وذُو فَعَلَ كَذَا، وَهِيَ ذُو فَعَلَتْ كَذَا».

قال شاعرهم:

فَإِنَّ الْمَاءَ مَاءُ أَبِي وَجَدِّي وَبَشْرِي... ذُو حَفَرْتُ وَذُو طَوَيْتُ
ورود في المثل: اسْتَأْصَلَ اللَّهُ عِرْقَاتَهُ^(٣) قال أبو عمرو يقال:

استأصل الله عرقات فلان وهي أصله، وقال المنذري:

هذه كلمة تكلمت بها العرب على وجوه، قالوا: استأصل الله عِرْقَاتَهُ، وعِرْقَاتَهُ وعِرْقَاتَهُ... وقال ابن فارس والأزهري: العرب تقول في الدعاء على الإنسان: استأصل الله عِرْقَاتَهُ «ينصبون التاء لأنهم يجعلونها واحدة مثل سَعَلًا، وقال آخرون: بل هي تاء جماعة المؤنث لكنهم خففوه بالفتح^(٤)».

والمثل شاهد في كتب النحاة لمن أجاز النصب بالفتحة في مثل هذا الجمع مما هو مفرد ملحوق بجمع المؤنث، أو جمع معتل اللام محذوفها كثبة ولغة^(٥). فقد نقل عن أبي خيرة لما سأله أبو عمرو: كيف تقول في سمعت لغاتهم؟ فقال: سمعت لُغَاتَهُمْ بفتح التاء فقال أبو عمرو: هيهات يا أبا خيرة لَأَنْ جِلْدُكَ. وكان أبو عمرو بعد ذلك يرويها بالكسر والفتح^(٦).

وقالوا^(٧): اسقِ أَخَاكَ النَّمْرِيَّ يَصْطَبِحَ^(٨) وهو مثل قول الشاعر:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعَ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ

(١) مجمع الأمثال ١ : ٦٨ .

(٢) ويطلق هذا المثل على حوادث الدهر التي تمر بالخلق .

(٣) يراد بالعرقة: الأصل، وهذه كلمة تقال في الدعاء على الإنسان

(٤) مجمع الأمثال ١ : ٦٢ . (٥) الهمع ١ : ٢٢ .

(٦) نفسه ١ : ٢٢، الخصائص ١ : ٣٨٤ .

(٧) أمثال العرب - ليونس بن حبيب ١٣٨ .

(٨) يقال أن قومًا من العرب كانوا بالدهناء في شدة ومعهم ماء قليل يقتسمونه فشرب كل منهم حصته، فلما أخذ أحدهم الإناء ليشرّب نظر إليه أحدهم فظنه عطشان فقال: اسقِ أَخَاكَ... فذهبت مثلاً .

وقد جاء ذلك على لهجة من ينصب الأسماء الستة بالألف، وهي أشهر اللهجات فيها، ومثله قوله:

إِذَا تَرْضَيْتَ أَخَاكَ فَلَا أَخَا لَكَ^(١)

وقالوا: مُكْرَهُ أَخَاكَ لَا بَطْلَ «فألزم أخاك الألف في الرفع على لهجة^(٢)» وأوردها النحاة^(٣) عن قبائل معروفة من العرب، وقياس اللغة العالية هو: أخوك. وقالوا^(٤): لَيْتَ الْقِيَّاسَ كُلُّهَا أَرْجُلًا^(٥).

كذا ورد في المثل نصباً وهي لهجة عزيت إلي تميم حيث يعملون «ليت» عمل «ظن» فيقولون: ليت زيدا شاخصاً كما يقولون: ظننت زيدا شاخصاً^(٦)، وهو مذهب لبعض الكوفيين. وقالوا^(٧):

تَسْمَعُ بِالْمُعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ^(٨) ويمكن أن تكون رواية النصب قد جاءت على مذهب بعض العرب الذين يحذفون «أن» المصدرية الناصبة، وينصب بها مع الحذف وهو غير مقيس عند النحويين، وعليه جاء قول عروة بن الورد: ؟ فَقَالُوا: مَا تَشَاءُ: فَقُلْتُ أَلْهُو إِلَى الْإِصْبَاحِ أَثَرِ ذِي أَثِيرٍ.

والتقدير: أن ألهو، فإن مقدرة معنى وإن لم ينصب الفعل لفظاً^(٩).

وقالوا^(١٠): الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ^(١١) و«الكلاب على البقر»^(١٢) بالنصب وبهذا استشهد من ذهب من النحاة إلى أن النصب بعد حذف الفعل جائز حيث نصب المفعول به في جميع هذه الأمثال: وقد سمع من بعض العرب:

(١) مجمع الأمثال ١: ٢٣. (٢) نفسه ٢: ٦٨، ١٤٤، ٣١٨.

(٣) قيل إن قائله أبو حنشل أوقفه خاله على فم غار به جماعة من أشجع يشربون وهم قاتلون إخوته، فقال بعضهم إن أبا حنشل بطل فقال ذلك فصارت مثلاً.

(٤) شرح التصريح ١: ٦٥. (٥) يضرب للمتمني محالاً.

(٦) مجمع الأمثال ٢: ١٨٧.

(٧) يضرب لمن خبره خير من مرآة... وقد قالها المنذر في أحد غلظة ضمرة.

(٨) أمثال العرب ٥٥. (٩) الكشف ٣: ٤٧٤.

(١٠) حكمة تقال عند سكنى دار أو شرائها... يعني أن السؤال عن الجار قبل الدار.

(١١) مجمع الأمثال ١: ١٧٢.

(١٢) يضرب عند تحريش بعض القوم على بعض من غير مبالاة يعني: لا ضرر عليك فخلهم.

اللَّهُمَّ سَبْعًا وَذُبًّا^(١) وقالوا^(٢): إِنَّ لَاحِظِيَّةً فَلَا أَلِيَّةَ^(٣).

وقالوا^(٤): قَدْ قِيلَ ذَلِكَ «إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبًا»^(٥)، وقد جاء هذان المثالان حجة لمن قال بأن نصب الاسم الواقع بعد «إن» على حذف كان الناصبة بعدها جائز في كلام بعض العرب، وقالوا: «إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلُ»^(٦) وقد احتج به من قال باستعمال ليس بمعنى «إلا».

وقالوا: مَنْ يَكُنْ أَبُوهُ حَدَاءً تَجَدُّ نَعْلَاهُ «وقالوا» مَنْ يَبْغِ فِي الدِّينِ يَصْلَفُ^(٧) فلم يجزم بـ «من» الشرطية، وقالوا: ذهبوا أيدي سبا، وتفرقوا أيدي سبا^(٨). وللعرب في هذا لهجات - سنشير إليها في حينها.

وقالوا^(٩): كَالَّذِ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيدَا^(١٠).

وقالوا^(١١): ذَهَبَ أَمْسٍ بِمَا فِيهِ^(١٢) ولعل بناءه قد جاء على لهجة الحجازيين الذين يشترطون في بنائه شروطًا، وبنو تميم ينقسمون إلى: قسم: بينه في حالة الرفع فقط، ويعربه ما لا ينصرف في الباقي.

(١) الخصائص ١ : ٢٥٠.

(٢) يضرب في الأمر بمدارة الناس ليدرك بعض ما يحتاج إليه منهم.

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٢٠.

(٤) قيل إن أول من قال ذلك هو النعمان بن المنذر للربيع بن زياد العبسي وكان صديقه ونديمه وذلك لما عابه لبيد بمرض البرص فحاول الاعتذار فقال له ذلك.

(٥) مجمع الأمثال ٢ : ١٠٢.

(٦) يضرب في المكافأة يعني إنما يكافئك الكيس لا الأحمق... مجمع الأمثال ٢ : ١٧.

(٧) يضرب لمن كانت له أعوان ينصرونه... مجمع الأمثال ٢ : ٣٠١، ٢ : ٣٠٩.

(٨) يضرب مثلاً لمن تفرقوا تفرقاً لا اجتماع بعده... مجمع الأمثال ١ : ٢٧٥.

(٩) يضرب مثلاً للرجل يأتي الرجل يسأله شيئاً فيأخذ منه ما سأل... مجمع الأمثال ٢ : ١٦٠.

(١٠) انظر ص ٢ : ١٦٠.

(١١) قيل إن قائله هو: ضمضم بن عمرو اليربوعي وكان قد هوى امرأة هي معشوقة من قبل ابن عمه نمر بن ثعلبة بن يربوع فأغاض ذلك ابن عمه ضمضم فقتله ف قيل له في ذلك فقال: ذهب أمس بما فيه... فذهب قوله مثلاً.

(١٢) مجمع الأمثال ١ : ٢٧٥.

ومنهم من يعربه إعراب ما لا ينصرف أبداً، وقالوا^(١): «أَطْرُقُ كَرَأً إِنَّ النَّعَامَةَ فِي الْقُرَى»^(٢) وقد ذهب بعض النحويين إلى أن أصل «كرا» كروان، وأنه جاء على لهجة الترخيم مع الانتظار، وقال سعد بن زيد مناة^(٣): «لُجْ مَالٍ وَلَجَتْ الرَّجْمُ» يريد مالك فجاء على لهجة الترخيم مع الانتظار. وقالوا: فَيَحِي فَيَاحِ^(٤) حيث جاءت مبنية على الكسر عند الحجازيين كما سبق، وقالوا أيضاً: بَاءَتْ عَرَارٍ بِكَجَلٍ^(٥) وجاءت عرار مبنية عند الحجازيين والتميميين حيث وافق مذهب بني تميم الذين يشترطون للبناء ههنا أن ينتهي مثل هذا وأشباهه بالراء، وقالوا: مَنْ دَخَلَ ظَفَارٍ حَمَرٍ^(٦). وقالوا: الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَدَامٌ^(٧) على لهجة الحجاز... إلخ. وقالوا: سَقُّوا بِكَأْسٍ حَلَاقٍ^(٨). وقالوا: شَرَّ مَا يُشِيئُكَ إِلَى مُخَّةٍ عُرْفُوبٍ^(٩). أي يجيئك. والشين- بدل من الجيم، وقد جاء على لهجة تميم ومن نحا نحوهم في إبدال صوت الجيم شينا. وقالوا: ما غبا غبيس على لغة طيء في غبا^(١٠). وهكذا أصبحت الأمثال تحوى مادة لهجية كبيرة تحتاج إلى دراسة عميقة، ومحاولة نسبة ما لم يعز إلى أصحابه فقد يكون لهجة لبعض العرب.

أما القراءات:

فتعتبر من أهم المصادر اللغوية للوقوف على وجوه الاختلاف بين اللهجات العربية فهي المصدر الذي حفظ لنا اللغة العربية مُثَلَّةً فيها اللهجات ولما عُرِفَ به

(١) يضرب للذى ليس عنده غناء ويتكلم فيقال له اسكت وتوق انتشار ما تلفظ به كراهية ما يصيبه.

(٢) مجمع الأمثال ١: ٤٣١.

(٣) زعموا أن مالك المذكور كان أحمق فزوجه أخوه سعد النوار بنت جد، فلما كان عند بناته وأدخلت عليه امرأته انطلق به سعد حتى إذا كان بباب بيته قال له سعد لج بيتك فأبى فعاتبه مراراً فقال له سعد ذلك فصار مثلاً - أمثال العرب ٥٧.

(٤) مجمع الأمثال ٢: ٧٧.

(٥) يضرب مثلاً لكل مستويين يقع أحدهما بإزاء الآخر... مجمع الأمثال ١: ٩١.

(٦) يضرب للرجل يدخل في القوم فيأخذ بزبهم... مجمع الأمثال ٢: ٣٠٦.

(٧) يضرب في التصديق... مجمع الأمثال ٢: ١٠٦.

(٨) يضرب لمن فنوا بالموت... مجمع الأمثال ١: ٣٤٢.

(٩) يضرب لمن هو مضطر جداً... مجمع الأمثال ١: ٣٥٨.

(١٠) مجمع الأمثال ٢: ٢٣٩.

القراء في العصور المختلفة من دقة في التلقي، ومن ضبط وإتقان في الرواية، يؤيد هذا ما لاحظته بعضهم من أن كلا من الأئمة القراء كان يذهب في إعراب ما انفرد به مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع، وقَصَدَ من القياس وجهًا لا يمنع^(١)، فاختلاف القراء ينبني على ما بين اللهجات العربية التي قرئ بها القرآن من اختلاف العربية، وللتدليل على ذلك نقول: إن الصلة جَدَّ وثيقة بين القراءات ولهجات العرب، فلقد وضع علماء القراءات شروطًا لصحة القراءة المنقولة، منها موافقتها للهجة من لهجات العرب، فليس كل صالح للقياس جائز القراءة به، إذ القراءة سنة متبعة أخذت بالرواية والتلقي^(٢)، إضافة إلى أن اختلاف اللهجات العربية بين قبائل العرب في بيئاتها المختلفة قد أدَّى إلى استمرار القراءات بأنواعها على الرغم من إلزام الناس بالأخذ بما أجمع عليه المسلمون.

وقد تمكَّنَّا من الوقوف عن طريق هذه القراءات الشاذة على أشياء كثيرة من تأثير اللهجات في قراءات القرآن، وكتبُ القراءات والتفسير حافلة بمثل هذه القراءات، وبناء عليه فليس من شك في اعتبار القرآن بقراءاته التي قرئ بها وأصبحت كل منها مذهبًا لقوم من القراء وأتباعهم يتلونونه عن طريقها خير ممثل لواقع أمة العرب اللغوي، فالتاريخ يحدثنا أن هناك لغة اصطنعها العرب لأنفسهم، ولأسباب متعددة صارت لغة أدبيةً واصطنعتُ بها آدابُها وفنونُ التفكير فيها وتبادلت بها حديثها عند اجتماعها في المواسم والمناسبات الخاصة. وتكونُ هذه اللغة من أمشاج وأخلاط من كثير من لهجات العرب بحيث استصفت منها أحسنها وأخذت منها أبينها.

- وقد سبق الحديث عن ذلك- وكان إلى جانب تلك اللغة المنتقاة لهجات خاصة بقبائل العرب يتبادلونها فيما بينهم ويقضون بها حوائجهم فقد كان العرب قبل الإسلام وبعده منقسمين إلى فئتين:

١- فئة الخاصة: التي كانت تتطلع إلى صقل لغتها وتحسينها فتسمو في تعابيرها إلى مستوى أرفع من مستوى التخاطب العادي.

(١) ابن خالويه -الحجة في القراءات السبع - ٦١ وما بعدها. تحقيق سالم مكرم.

(٢) الإتيان ١- ٧٧، وانظر ما قاله ابن جني في الخصائص- ١ : ٣٩٨ في ذلك.

٢- فئة العامة: التي كانت تكتفي بحظ قليل من فصاحة القول وبلاغة التعبير وتمضي تبعا لتقاليدھا الخاصة وبيئھا الجغرافية الخاصة إلى الاستقلال وصياغة جملھا وتركيب مفرداتها ولحن أصواتها^(١).

ومع أن ذلك ليس هو كل السبب في حدوث هذه القراءات في كتاب الله واستمرارها فيما بعد إلا أنه من غير شك فإن الله تعالى قد أراد التخفيف والتيسير على أمة العرب حين أنزل كتابه على خير خلقه، فقد راعى حال الفئتين على ما بين جماعاتها من تفاوت في مستوى البلاغة وفصاحة القول.

فلم يفرض عليهم من أول وهلة الالتزام بمستوى معين من الكلام وأباح لكل قوم أن ينطقوه على حسب عاداتهم الكلامية في طريقة النطق والأداء.

وقد أقرهم رسول الله ﷺ - على ذلك، ومن هنا - ولأسباب أخرى - وجدت القراءات طريقها إلى كتاب الله سواء في تلاوته أو في أدائه.

ومظاهر تعدد القراءات عند القراء معلومة وسنشير هنا إلى بعض تلك المظاهر مما هو وثيق الصلة باختلاف اللهجات العربية في نواحيها الصوتية والصرفية والنحوية. . وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق.

ومن أمثلة هذه المظاهر في النواحي الصوتية:

الميل إلى الإدغام: وهو من خواص بعض اللهجات، ويعني به القراء: إدغام المثل أو مقاربه، والأحرف المتقاربة والمتماثلة كثيرة وشواهدا عديدة من القراءات فمن ذلك: قراءة عاصم^(٢): فَإِذَا هِيتَلَقَفُ مَا صَنَعُوا^(٣).

وقراءة أبي عمرو عن مجاهد^(٤) في نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ فأدغم الياء في مثلها في القراءة الأولى، والواو في مثلها في قراءة أبي عمرو، وفي المتقاربين^(٥) نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ فأدغم التاء في السين، والحاء في العين^(٦) لتقارب المخرجين.

(١) دراسات في فقه اللغة ٦٥.

(٢) الخصائص ١: ١٠٩٤.

(٣) الأعراف ١١٧: ١٩٩.

(٤) النشر ١: ٢٨٤.

(٥) نفسه ١: ٢٧٩.

وتميل بعض اللهجات العربية إلى الهمز، وبعضها تسهل، وفي القراءات القرآنية شواهد من ذلك، فقد قرأ أبو جعفر «رَبَّاتٌ» بالهمزة، بينما قرأ الباقون «رَبَّتٌ»^(١) وقرأ بعضهم وأنه أَهْلَكَ عَادًا الْوَلَّى وهي قراءة أبي عمرو، على حين قرأ الباقون (الْأَوَّلَى)^(٢).

وقد تحدثنا عن ذلك بشيء من التفصيل فيما سبق.

وهناك خلاف بين لغات القبائل العربية حول الإمالة أو عدمها في بعض كلامهم، وفي القراءات القرآنية أمثلة متعددة من أنواع الإمالة في لهجات بعض القبائل العربية فقد نقل ابن الجزري إمالة «رُؤْيَايَ» من قوله تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهي قراءة انفرد بها الكسائي، وأمليت كلمة «مَجْرَاهَا» من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. وبها قرأ حفص، وانفرد بذلك الشذائي عن الداجوني عن ابن مامويه عن هشام: بإمالته، وأبو عمرو بن ذكوان على أصلهما، وهذا عام في كل راء بعدها ألف.

وأمالوا نحو قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وهي مروية عن ابن ذكوان، وأمالوا قوله تعالى: ﴿لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ [النساء: ٩] فقد أماله حمزة من رواية خلف^(٣).

وأمالوا ﴿طه﴾ [١] مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢] إذ أمالها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر^(٤).

وأشمووا قوله تعالى: ﴿وَعِغْضَ الْمَاءِ﴾.. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.. ﴿سِيتَ وَجُوهُ﴾. وهناك من العرب من كان يميل في لهجته إلى المعاقبة في بعض أصوات الكلمة، وفي البحر المحيط ما نصه: «قرأ زيد بن علي «الْقُصِيَا» في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال: ٤٢] بقلب الواو ياء، ولم

(٢) النشر ٢: ٢٣٠، الإتحاف ٤٠٣.

(١) النشر ٢: ٣٢٥.

(٤) النشر ٢: ٦٨.

(٣) النشر ٢، ٥٦، ٦٣.

يعتدوا بالسكان لأنه حاجز غير حصين كما فعلوا ذلك في صبية وفتية ودينا، وقد ذكر أبو حيان أن ذلك هو القياس وهو لغة تميم^(١) وأهل نجد، والأولى لغة الحجاز وأهل العالية وهو شاذ في القياس وبها وردت قراءة الجمهور^(٢).

وهناك من القبائل العربية من مالت في لهجاتها إلى التخفيف بحذف بعض الحركات داخل بناء الكلمة، وفي القراءات من قرأ:

﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبْطُونَهُ﴾ [النساء: ٨٣] على «لَعَلَّمَهُ»^(٣) بسكون اللام من «لَعَلَّمَهُ».

وروي عن ابن عباس تحريك الواو من «عَوْرَات» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَبْظُفُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]. وهي قراءة ابن إسحق والأعمش أيضاً^(٤).

وآثرت بعض اللهجات العربية تغيير حركة مكان أخرى فقالوا: تلعب، ويذهب، وإعهد... وفي القراءات: قراءة يحيى بن وثاب وأبي رزين العقيلي وأبي نهيك في ﴿تَبَيَّضَ وَجْهُهُ وَتَسْوَدَّ وَجْهُهُ﴾ [آل عمران: ١٠٦] و﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠].

وكما حدث ذلك في حركة مكان فقد وقع في إبدال حرف من حركة لغرض وضوح الصوت وظهوره، ومن ثم مطلوا في نحو: بمتزاح في متزح، وينباع في ينبع، وأنظور في انظر^(٥)... وهكذا.

وفي القراءات: ما قرأ به قبل^(٦) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَقٍ وَيَصْبِرٍ﴾ [يوسف: ٩٠] حيث أشبع كسر حركة «يتق» المجزوم بحذف حرف العلة وبقاء الكسرة دليلاً على الياء.

وقراءته أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ بإثبات الياء من طريق ابن شنبوذ وصلاً ووقفاً على لغة من يثبت حرف العلة في الجزم ويقدر حذف الحركة المقدرة على حرف العلة^(٧).

(٢) نفسه ٤: ٥٠٠.

(١) البحر ٤: ٥٠٠.

(٤) الشواذ ١٠٣، البحر ٦: ٤٤٩.

(٣) البحر ٢: ٢١٧.

(٦) البحر ٥: ٣٤٣.

(٥) الخصائص ٣: ١٢٠ وما بعدها.

(٧) الإنحاف: ٢٦٢، ٢٦٧ وما بعدها.

وهناك إبدال وقع بين فئات لهجات القبائل العربية تمثل في إيقاع حرف مكان آخر، إما لأنه شبيه به وإما لأن الآخر أظهر وأبين من الحرف المبدل منه أو لأسباب أخرى- سنسطها جميعا في موضعها من الإبدال في القسم الثاني من الكتاب . . .

وقد ترك ذلك أثره في القراءات القرآنية فقد قرأ ابن مسعود^(١) ﴿وَتَوْمَهَا﴾ بدلا من الفاء في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تَبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

وقرأ بعض القراء قوله تعالى: ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾ على «هذي الشيرة» بإبدال الهاء ياء من «هذه» والجيم من الشجرة ياء كذلك^(٢) . . . وأمثال ذلك من المظاهر الصوتية وردت في قراءات الكتاب العزيز .

فإذا تأملنا فيما خلفه اختلاف اللهجات العربية من أثر في النواحي النحوية رأينا في اختلافها مرآة صادقة تعكس عليها مظاهر اختلاف تلك اللهجات نحويًا، فقد قرأ ابن جبير بنصب (عبادًا) من قوله تعالى^(٣): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] وقرأ الجمهور ﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقرأ أبو السمال «وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ»^(٤). ولكل ذلك نظائر في اللهجات العربية فقد أعملت بعض اللهجات العربية أدوات لم تعمل في اللهجات الأخرى، وحذفت أحد جزأى الجملة الاسمية، في حين أبقى عند بعضهم، واختلفت فيما بينها حول التقديم والتأخير والتذكير والتأنيث- وستحدث عن ذلك في موضعه من القسم الثاني . .

أما في النواحي الصرفية:

فقد أدغمت بعض القبائل العربية في بعض كلامها حروفاً متماثلة أو متقاربة بينما فككت أخرى -وقد سبق ذكر ذلك .

وَحَفَفَتْ حِينَ نَقَلَ الآخَرُونَ فَقَالُوا: عَلِمَ وَكَبَدَ وَفَخَذَ . . في عَلِمَ وَكَبَدَ وَفَخَذَ - وَيُشْعِرُكُمْ فِي يُشْعِرُكُمْ .

(١) البحر ١: ١٥٨ .

(٢) البحر ١: ٢٣٣ .

(٣) نفسه ٤: ٤٤٢ .

(٤) البحر ٧: ٣٨٣ .

وفي القراءات: قراءة أبي عمرو «وَرُسَلْنَا وَرُسَلَكُمْ - سُبَلْنَا»^(١) - وَيَشْعُرُكُمْ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ^(٢) وسيأتي ذلك .

فإذا تأملنا هذه المظاهر من تعدد القراءات حسبما يؤكد نزوله على سبعة أحرف أيقنا أن هناك اختلافات فيما بينها .

والواقع أن هذه المظاهر اللهجية قد اختلفت معظمها إلا في قراءات وصفت بالشذوذ عند علماء القراءات حين ألزم كل المسلمين بالمصحف الإمام فبقيت تلك القراءات كأثر من آثار المرحلة السابقة، إذ شاعت وبقيت في الألسن بعد ذلك الإجراء، والدلائل على اختلاف تلك القراءات قبل توحيد جميع المسلمين على المصحف الإمام واضحة، وقد نستبين درجة ذلك الاختلاف وخطورته من قول حذيفة بن اليمان لعثمان بن عفان -رضى الله عنه- «أدرك هذه الأمة قبل أن يتفرقوا في كتابهم كما فعل اليهود والنصارى فكان ما كان من أمر عثمان أن يجمع المسلمين على مصحف واحد، وأمر بتلك المصاحف فأحرقت»^(٣)، ويؤكد كل الباحثين على أن الاختلافات الموجودة بين أيدينا إنما هي في الحرف الذي بقي من تلك الأحرف السبعة، وهذا هو الذي أسهمت اللهجات العربية بنصيب بارز في اختلاف القراءات عن طريقه - كما أوضحنا سابقاً - فوجدنا مظاهر الفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والهمز والتسهيل وكسر حروف المضارعة وقلب بعض الحروف وإشباع ميم الذكور وإشمام بعض الحركات^(٤) .

والأثر الذي تخلف عن اللهجات العربية واعتبر سبباً مهماً من أسباب تعدد القراءات إنما هو الذي مكّن النحاة من الوقوف على مصدر مهم من مصادر كلام العرب .

ولا يخرج ما اعتمدوا عليه في الاستشهاد أو الاعتراض على نوع واحد من هذه الأنواع التي تأثرت باللهجات، فأثرت فيها بحيث غدت القراءة ممثلة للهجة ودليلاً قوياً على وجودها، وازدادت أهميتها بعد أن اختلفت معالم بعض اللهجات أو لم

(١) ابن الجزري - التجهير والتيسير ٩٥ .

(٢) الهمع ٥٤ ، الإتيقان ٢ : ٧٧ .

(٣) تفسير الطبري ١ : ١٨ وما بعدها - ط بولاق .

(٤) النشر ١ : ٢٨ .

تصل إلينا فيما خلفه العرب من آثار لغتهم، وقد استطاعت القراءات القرآنية المنبثقة عن اختلاف اللهجات من أن تحتفظ بتلك المظاهر اللهجية وتبثها في جميع نواحيها الصوتية والصرفية والنحوية . . .

ولهذا كله نرى مدى القيمة اللغوية لهذا المصدر من مصادر استقاء اللغة وأثره في بناء أسس وقواعد لغة العرب، ومن المؤكد أن قيمة ما وصل إلينا من اللهجات عن طريق القراءات يجب الاعتماد عليه في الوصول إلى أحكام ثابتة في لغة العرب، ولهذا رأينا بعض المنصفين من النحاة خاصة يردون مذاهب شتى لبعض إخوانهم من النحويين واللغويين الذين وقفوا من القراءات القرآنية موقفاً غير حميد، وعابوا عليهم غلوهم في جانب القياس، ودعوا إلى الاحتجاج بكل ما ثبت وروده عن القراء وصحت نسبته ولو كان في ذلك الوارد بعينه.

قال السيوطي: «وأما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يُحتجُّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ولا يقاس عليه نحو: استحوذ، ويأبى، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلم فيه خلافاً بين النحاة . . .

وكان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحزمة قراءات بعيدة في العربية وينسبونهم إلى اللحن وهم مخطئون في ذلك فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها وثبوت ذلك على جوازه في العربية.

وقد رد المتأخرون منهم ابن مالك على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد واختار جواز ما وردت به قراءاتهم في العربية وإن منعه الأكثرون مستدلاً به^(١).

ويبدو -لي- أن طعن بعض النحاة في القراءات القرآنية ولا سيما الصحيحة منها إنما تم في عصور المتأخرين منهم حين بالغوا في أمر القياس واشتطوا فيه وحاولوا إخضاع القراءات له، وأظن أن ما حدا ببعضهم إلى ذلك أن منهم من كان

(١) الاقتراح ١٤.

ينتزع من كلام العرب حكماً ثم يتخذ مذهباً نحوياً ثم تعرض له القراءة الثابتة النسبة على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرفها عن وجهها ويحاول تأويلها لكي لا تخرق قاعدته النحوية التي اصطنعها مذهباً له .

أما أوائل النحاة فقد أعرضوا عن الخوض في ذلك لأسباب أهمها:

كثرة وجود القراءات الصحيحة وتباينها أحياناً مما جعل من الصعوبة إيجاد قاعدة نحوية تنتظم جميع تلك الوجوه وتستجيب مع اختلافها، وإنما الهدف من النحو الوصول إلى قواعد كلية تنتظم عدة ظواهر لغوية متقاربة وتسمح بقياس غيرها من الظواهر المشابهة لها عليها، ولما لم يكن في وسع النحاة الأوائل - وأكثرهم من القراء - استقراء كل تلك القراءات وملاحقة خواصها المتباينة، تعذر عليهم أن يضعوا للكلمة الواحدة تُقرأ بأوجه إعرابية مختلفة قواعد متعددة؛ لأن ذلك كان سيؤدي بهم إلى متاهات ما بعدها متاهات، فأثروا السلامة وتجنبوا - قدر الإمكان - الخوض في قراءات الكتاب العزيز أو محاولة فرض القواعد عليها^(١).

ولعل مما يؤكد ذلك: اعتراف بعضهم بأن أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل .

وإذا ثبتت الرواية لم يرد لها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها^(٢)، لهذا وجدنا يونس بن حبيب - أستاذ سيبويه الثاني بعد الخليل - يجيز جر «المسجد» في قوله تعالى: ﴿وَكُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [البقرة: ٢١٧] بالعطف على الضمير المجرور في «به»، وهو الأمر المخالف للقاعدة البصرية التي لا تجيز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض^(٣).

وبعضهم يعتذر بأن الاستقراء دل على أن كلام العرب قسمان:

قسم اشتهر استعماله وكثرت نظائره فجعلوه قياساً مطرداً، وقسم لم يظهر لهم فيه القياس لقلته وكثرة ما يخالفه فوصفوه بالشذوذ ووقفوه على السماع لا لأنه

(١) د. عفيف دمشقية - المنطلقات الأساسية والفنية في النحو - ٥٤ . . .

(٢) الإتيان ١ : ٧٥ .

(٣) البحر ٢ : ١٤٧ .

غير فصيح بل لأنهم علموا أن العرب لم تقصد بذلك القليل لأن يقاس عليه، وإذا سلموا أن ما جاءت عليه الآية أو القراءة مما يخالف عربيً فصيحٌ كان اعتذارهم بأن العرب لم تقصد بذلك القليل لأن يقاس عليه أوهي من خيط العنكبوت.

وفي صحة القياس على ما ترد به قراءات الآيات الكريمة مخالفاً لما اشتهر في كلام العرب زيادة في أساليب القول وفتح طرق يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته، فحذف «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع في المثل المشهور: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه... جاء مثله في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] فقد ذهب بعضهم إلى أن جملة «يريكُم» مصدر على إضمار «أن» المصدرية كما قال:

أَلَا أَيَّهَذَا الرَّاجِرِي أَحْضَرُ الْوَعَى

برفع أحضر، والتقدير: أن أحضر فلما حذف «أن» ارتفع الفعل، وليس هذا من المواضع التي يحذف منها «أن» قياساً^(١).

ومثل قول النحويين: سَاءَ ضَرْبُ عَمْرٍا زَيْدٌ «جاء مثله في القرآن الكريم في قراءة ابن عامر»^(٢) ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمُ شُرَكَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ومثل ما روي في غير النظم من حكاية بعض العرب «مَا فِيهَا غَيْرُهُ وَفَرَسُهُ» بجر الفرس عطفاً على الضمير في «غيره» من غير إعادة الخافض والتقدير: ما فيها غيره وغير فرسه: قراءة ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والنخعي ويحيى بن وثاب والأعمش وأبي رزين وحمزة من السبعة^(٣): ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. ولا التفات إلى من ادعى اللحن فيها أو الغلط على حمزة أو يخرجها فرارا من العطف على الضمير المجرور بغير إعادة الجار، وقد ورد من ذلك في أشعار العرب كثيرٌ يخرج عن أن يجعل ضرورةً وإذا تقرر أن العطف بغير إعادة الجار ثابت من

(١) الكشف ٣: ٤٧٤، البحر ٧: ١٦٧.

(٢) سراج القارئ المبتدئ - أبو القاسم علي القاصح - ٢١٦ - دار الفكر.

(٣) سراج القارئ المبتدئ - ١٨٨، البحر: ٣: ١٥٧ وما بعدها.

كلام العرب في نشرها ونظمها كان يخرج عطف «وَأَلْسَجِدَ الْحَرَامَ» أرجح بل هو متعين لأن وصف الكلام وفصاحة التركيب تقتضى ذلك^(١).

أما الحديث الشريف:

فمع أن بعض أئمة اللغة والنحو قد ذهبوا إلى عدم أحجية الاستشهاد به في مسائل اللغة والنحو بحجة أن الأحاديث لم تُنقلَ كما سُمِعَتْ من النبي - ﷺ -، وإنما رويت بالمعنى، فلم تُدَوَّنْ إلا في عصور متأخرة من عصر النبوة حيث فسدت اللغة وكثر اللحن ووُضِعَ كَثِيرٌ منه في بعض رواياته، مما حدا ببعض أوائل النحاة أن يُنحُوا هذا المصدرَ عن دائرة الاستشهاد به في بناء قواعدهم وسار عليه بعض المتأخرين^(٢)، إلا أننا نعتقد وهم هذه الدعوى من عدة نواح:

١- كون الحديث قد نُقلَ كُلُّه بالمعنى يحتاج إلى برهان؛ إذ هناك أنواع كثيرة منه نُقِلَتْ بألفاظها، ودُوِّنَتْ كما سمعت من رسول الله - ﷺ -، والبقية الباقية - إن صح نقلها بالمعنى - فقد تم تدوينها في الصدر الأول والناس ما يزالون ينطقون العربية صافيةً نقيةً «وغاية الأمر تبديل لفظ بآخر يصح الاحتجاج به»^(٣).

٢- أن من عرف الكيفية التي دُوِّنَ عليها، والطريقة التي تم في إطارها والشروط التي أحاطت بروايته بالمعنى، يتبين له بكل وضوح أن مثل تلك الشروط لا تتَوَفَّرُ إلا في الصحابة والتابعين وكبار أئمة الرواة والفقهاء^(٤)، وهم من يُقَدَّم قولهم في الاحتجاج به في اللغة والنحو على ما سواه من كلام العرب.

٣- التحري والدقة اللتان صاحبتا عملية الجمع ولكل ذلك شواهد كثيرة تجلُّ عن الحصر.

٤- ثم من يقول: إنَّ أوائل النحاة ومن تبعهم من المتأخرين لم يكونوا يحتاجون بالحديث فهذا كتاب سيبويه بين أيدينا - وهو كما قلنا أول تععيد في العربية - وبه نجد نصوصاً من حديث رسول الله - ﷺ - وإن فاتَه أن ينصَّ على ذلك^(٥).

(١) البحر ٢: ١٤٧ وما بعدها، ٣: ١٥٧ وما بعدها، وينظر: الإنصاف: ٢: ٤٣١..

(٢) الخزانة: ١: ٥ وما بعدها. (٣) الخزانة ١: ٥.

(٤) صبحي الصالح - علوم الحديث ومصطلحه ٣٢٩.

(٥) الكتاب ١: ٢٣٣، ١: ٣٩٦. ط بولاق.

ولا نسلم ألبتة بأن المتأخرين من نحاة الأقاليم قد أعرضوا عن الاحتجاج بالحديث فكتبهم مَلَأَى بالاستشهاد به، فقد اعتمد عليه الشريفان الصقلي والغرناطي في شرحيهما لكتاب سيبويه وابن الحاج في شرح المقرب، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي، وأبو علي الشلوين في كثير من مسائله، وكذا استشهد به السيرافي والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن مالك الذي أكثر منه حتى ضاق به أهل زمانه من النحويين، وابن هشام. وقال أبو الطيب: بل رأيت الاستشهاد بالحديث في كلام أبي حيان نفسه^(١).

ومهما يكن الأمر فحاجة النحوى إلى الاعتماد على ما جاء في هذا المصدر من كلام العرب لضبط ألفاظه وتأسيس قواعده معلومة.

وإذا كان النحاة يستشهدون بأقوال قالها من ليسوا بعرب، وروايات نقلها بعض الأعاجم ومن يَطْعَنُ في عدالتهم، فإن الانصاف يقتضي منهم الاحتجاج بما صحت نسبته إلى رسول الله - ﷺ - منه، ومما دون في الصدر الأول.

ولعله بوحى من هذا الإنصاف وتحت تأثير الحاجة إلى الاستفادة من هذا النبع الفياض، كان تدافع المتأخرين من النحاة إلى الاحتجاج بالحديث احتجاجاً أنساهم أحياناً التفكير في صحة نسبة الأثر وسلامة متنه.

ومع أننا نظن أنهم غير مصيبين مطلقاً^(٢) في هذه النصوص، إلا أنه ليس في وسعنا إلا القول بأن الحديث الشريف قد حوى من مظاهر لهجات العرب وخصائصها ما يدعونا إلى الاعتراف بأنه لم يكن من الصواب - بحال - تجاهل بعض النحاة لهذا المصدر من مصادر لغة العرب محتجين بعلل^(٣) لا تثبت أمام البحث والتمحيص.

ففي النواحي الصوتية:

نجد أن مثل قول الشاعر:

ذَاكَ خَلِيلِي وَذُو يُوَاصِلْنِي
يَرْمِي وَرَائِي بِأَمْسِهِمْ وَأَمْسِلِمَهُ^(٤)

(١) سعيد الأفغاني - أصول النحو ٥٣ وما بعدها.

(٢) ينقل هذا الرأي عن الشاطبي وهو ممن عرف بالتوسط بين مذهبي المانعين ألبتة، والمجيزين مطلقاً. . .

يراجع الخزانة ١ : ٧.

(٤) المغني : ١ : ٤٨.

(٣) الخزانة ١ : ٥ وما بعدها.

جاء قوله - ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد في مسنده:

«لَيْسَ مِنْ أَمِيرٍ امْصِيَامٌ فِي امْسْفَرٍ»^(١).

وما ورد في كتابه إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت:

«وَمَنْ زَنَى مِنْ أَمْبَكِرٍ . . وَمِنْ أَمْثِيبٍ»^(٢).

وهي لهجة معروفة لطيء^(٣) وحمير وكثير غيرهم.

ويمكن أن يستشهد على لهجة الاستنطاء التي عرفت عند أهل اليمن وأزد وهذيل والمدينة وسعد بن بكر وقيس^(٤) الذين يعمدون إلى تحويل صوت العين في الفعل «أعطى وما تصرف منه» نوناً فيقولون: أنطى، ومنطى، ومنطاة بقول رسول الله - ﷺ - في كتابه إلى وائل ابن حجر وأهل حضرموت^(٥) أيضاً حيث قال: «وَأَنْطُوا الشَّبَجَةَ».

ومثل ما حكى عن بعض أئمة اللغة والنحو أن «نعم» لغة في «نعم» من نحو قوله تعالى: «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا» قالوا: «نَعَمْ» وهي لهجة أشياخ قريش وكنانة، وأن الفتح لغيرهم^(٦) جاء ما رواه قتادة عن رجل من خثعم «دُفِعْتُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَهُوَ يَمْنَى - فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»»^(٧).

أما في النواحي الصرفية:

ف نجد أن بعض النحاة يزعمون أن الماضي واسم الفاعل والمفعول من الفعل «يَدْعُ» قد أميتت واستغنت العرب عنها بـ «ترك» وما تصرف منه^(٨) وما جاء منه

(١) مسند الإمام أحمد ٥ : ٤٣٤ - ط بيروت.

(٢) صبح الأعشي ٢ : ٢٤٦ وما بعدها.

العقد الفريد ٢ : ٤٨ . . .

(٣) المغني ١ : ٤٧.

(٤) صبح الأعشي ٢ : ٢٤٦ وما بعدها.

العقد الفريد ٢ : ٤٨ . . وما بعدها.

(٦) مكى بن أبي طالب - شرح نعم وبلى وكلا . . . ص : ١٠٨.

(٧) اللسان ١٦ : ٦٨ وما بعدها - ط بولاق - مادة نعم.

(٨) الفيومي - المصباح المثير ٢ : ٨١٢.

فهو شاذ في السماع مطرد في القياس ويجب تحاميه، ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي:

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَعَهُ
فشاذ، وكذلك قراءة بعضهم: ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] (١).

ولا ندري ما سبب شذوذ مثل هذه الصيغة عند النحاة ألقطتها في كلام من وصل إليهم من العرب حين استنباط القواعد أم لشيء آخر في نفوسهم؟

فإن كان لقلتها فليس الحق معهم بدليل ورودها في الشعر كبيت الأسود السابق، وقول الآخر:

وَتَمَّ وَدَعَنَا أَلْ عَمُرُو وَعَابِرٌ فَرَائِسَ أَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمَرِ
وقراءة عروة بن الزبير وابنه هشام ورواها ابن عباس عن النبي - ﷺ - كما قرأ بها مقاتل وأبو حيوة وابن أبي عيلة ويزيد النحوي في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ مخففة (٢) ويصدقها ما رواه البخاري، قال: حدثنا صدقة قال حدثنا ابن عطية قال سمعت ابن المنكدر قال سمعت عروة بن الزبير: أن عائشة أخبرته: استأذن رجلٌ على النبي - ﷺ - فقال: «اأذنوا له بُسْ أَخُو الْعَشِيرَةِ» فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ الْكَلَامَ قَالَ: أَيُّ عَائِشَةَ: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ فَحْشِهِ» (٣).

وما روى أيضاً عن عمر بن خالد قال حدثنا أبو المليح قال: سَمِعْتُ مَيْمُونًا «يعني ابن مهران» قَالَ: سَأَلْتُ نَافِعًا: هَلْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَدْعُو لِلْمَأْدُبَةِ؟ قَالَ: لَكِنَّهُ انْكَسَرَ لَهُ بَعِيرٌ مَرَّةً فَنَحَرَهُ ثُمَّ قَالَ: أَحْشُرُ عَلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ نَافِعٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ؟ لَيْسَ عِنْدَنَا خَبْرٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، هَذَا عِرَاقٌ وَهَذَا مَرْقٌ، أَوْ قَالَ: مَرْقٌ وَبَضْعٌ فَمَنْ شَاءَ أَكَلْ وَمَنْ شَاءَ وَدَعْ» (٤).

(١) الخصائص ١: ٩٩.

(٢) صحيح البخارى ٨: ١٦ مطابع الشعب.

(٤) البخاري - الأدب المفرد - رقم الحديث ٣٤٣، فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ٢: ٦٦٧ - ٦٦٨ ط الإرشاد.

أما في المصدر: فقد روى مسلم عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول - على أَعْوَادٍ منبره - لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ وَدَعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ^(١).

ويمكن أَنْ نَعُدَّ من الشواهد على لهجة الحجازيين وبني تميم بالكسر في «الوتر» حالة العدد وبالفتح فيها لأهل العالية^(٢)، قوله - ﷺ - فيما رواه عنه علي - رضي الله عنه - «إِنَّ اللَّهَ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوِتَرَ فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ»^(٣).

أما في النواحي النحوية:

ف نجد مثلاً قول الشاعر:

وَاشْدُدْ بِمَتْنِي حَقَبَ حِقْوَاهَا

وقوله:

بَلَّغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

وأمثاله مما أنشده النحاة على إلزام المثني الألف رفعاً ونصباً وجراً قوله - ﷺ - : «لَا وَتِرَانٍ فِي لَيْلَةٍ»^(٤).

ومثل ما روي عن الثقات من أن تميماً كانت تعمل «إِنَّ» وأخواتها في جزأي الجملة الاسمية من مثل ما أنشدوه لعمر بن أبي ربيعة:

إِذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلَتَأْتِ وَلَتَكُنْ خُطَاكَ خِفَافًا إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدًا

جاء قول الصحابي الجليل أبي هريرة^(٥) - رضي الله عنه : «وَأَنَّ قَعَرَ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا».

(١) النووي - منهاج الصالحين ١٤٧.

(٢) المصباح المتبر ٢ : ٨٠١.

(٣) الترمذي - رقم الحديث ٤٥٢ ، ١ : ٢٨٢ - ط المدني عام ١٣٨٤هـ.

(٤) الترمذي - رقم الحديث ٤٦٨ - ١ : ٢٩٢ - ونصه : حدثنا هُناء أخبرنا ملازم بن عمر وقال حدثني عبد الله ابن بدر عن قيس بن طلق بن علي عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا وتران في ليلة ».

(٥) صحيح مسلم - رقم الحديث ٣٢٩ ، كتاب الإيمان - ص ١٨٧ - ط عام ١٣٧٤هـ.

وهي لغة مشهورة وبها ورد كثير من كلام العرب وأشعارها وقرئت بها بعض القراءات، فلماذا التأويل؟

ومثل ما نقله الفراء عن طيء أنهم يحذفون الياء الذي هو لام الفعل في الواحد المذكر معرباً كان أو مبنيًا بعد الكسر - كما سيأتي في موضعه - من نحو:

وَابْكَنَّ عَيْشًا تَوَلَّى بَعْدَ جِدَّتِهِ طَابَتْ أَصَائِلُهُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ
وبعد الفتح نحو قول العرب: اخْشَنَّ يا يزيد، والأصل: ابْكَنَّ واخْشَيْنَّ، ما رواه أحمد في مسنده^(١)، من قوله: ﷺ «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ تَنْطَحُّهَا».

ورواه بعضهم بضم الدال ونصب الحقوق والفعل مسند إلى الجماعة الذين خوطبوا به، وذلك على الوجه الشائع.

قال الطيبي: إن كان الرد لأجل الرواية فلا مقال، وإن كان بحسب الدراية فإن باب التغليب واسع فيكون قد غلب العقلاء على غيرهم، وجعل حتى غاية بحسب التغليب.

والصحيح: الرواية الأولى، وقد أنكرها ابن مالك وقال: لاتصلح في العربية، وإنما المنقول عن طيء حذف ياء الضمير بعد الفتحة لا لام الفعل الواحد المذكر، والواجب عنده: لتؤدين الحقوق، بإثبات الياء، إلا أن رواية الحديث المعتد بها قد جاءت على لهجة عرفت عن طريق طيء فيجب قبولها^(٢).

وهكذا نرى أن الحديث الشريف قد حمل شواهد لا بأس بها من لهجات العرب ردها النحويون كثيرا في بطون مؤلفاتهم، فهل يصح بعد هذا أن يتجاهل بعضهم الاعتماد على هذا المصدر في ترجيح استعمال ما أو تأصيل قاعدة نحوية بعلل واردة على ما ذهبوا إليه هم أنفسهم من ادعاءات؟

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢: ٢٣٥ - مع اختلاف في بعض ألفاظ الحديث. ونصه: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن العلاء ومحمد بن جعفر قال ثنا شعبة قال سمعت العلاء يحدث عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ تَنْطَحُّهَا»، وقال أبو جعفر يعني في حديثه: يقاد للشاة الجُلُحَاءِ.

(٢) البغدادي - الخزانة ٤: ٥٨٠.